قصة

لم يكاد يفرغ من التفكير. فكرةٌ تلو الأخرى، وأشد ما قضّ مضجعه "الأسعار!!"

-نارررر...الحياة صارت نارررر...

قال...منى نفسه مرة أخرى بتكرار الحسابات، للأسف لا جدوى. باءت جميع محاولاته بالفشل. تساءل على مضض:

-كيف لي أن أعيش على الخبز والزيتون...؟!!

وشعر بغصةٍ مريرة، دامت للحظات حتى تلاشت. مهما فعل، إن اقتصد أم بذر، النهاية واحدة. "الإفلاس" مصروف الشهر على كف عفريت. شغله التفكير، فعبر طريقًا مخالفًا...حتى صار بعيدًا عن المنزل. تملكه الغضب، صار يسب ويشتم:

-ملعون أبو المصاري والي اخترعها...خربان بيوت...

وصل صوته إلى زمرة من الناس، قيدوه بنظراتهم المعاتبة. صرخ أحد المارين من الرصيف:

-استحينا عم!

فالتفت إليه وحرك شفتيه:

-أبوك على أبو يلي نفضك.

وتابع الطريق إلى حيث هداه. دلف في مسار ضيق تظلله عمارات بالكاد مشيدة أو مدهونة. مشى وقد طرق بوجهه الأرض، يتفحص الزفت، قال ساخرًا:

-حداثة...!!!

مر على عدستيه إعلان كبير مشوه، مصبوغ بحبر شفاف، ملأه الغبار حتى هو بالكاد مقروء. وما جرت العادة أن وقف ليهب "إعلان تافه" وقته الثمين، ولو انطبعت صورة العنوان في مخيلته، فرددها لسانه عليه:

-مئة ألف ليرة لمتبرع دم " أ " إيجابي.

وتثبت في مكانه بعدما صارت ورقة الكرتون الرديئة خلفه، والتفت ليمعن النظر. المكافأة المالية مرسومة إلى العنوان في صدر الصفحة. لوى شفتيه وقال محركًا رأسه:

-شاطرين بس بالنصب...

تردد المبلغ كالطنين في مسمعه، وغمغم "مئة ألف ليرة سوري!!". حكته يده اليمنى. ما استطاع أن يمنع ابتسامة صبغت الشحوب الذي كسا وجهه. قرأ من مكانه:

"مطلوب متبرع دم زمرة " أ " إيجابي. وذلك يوم الأربعاء الموافق 13 نيسان 2022. للاستعلام الرجاء الاتصال على الرقم كذا..."

مكث برهة يشغل رأسه العنوان...

-ماذا لو صدق المنجمون؟!!

قال واستغفر ثلاث مرات. رنّ صوته الشيطاني "مئة ألف ليرة سوري!!!"، فتراقص قلبه. لاعبت خده نسمات دلفت الحارة الملعونة التي دخلها بالصدفة. رفع سماعة الهاتف ونقر الرقم...

-...عذرًا عزيزي المتصل. الرقم المطلوب مغلق أو خارج نطاق التغطية.

أعاد الاتصال...

-عذرًا عزيزي المتصل...

فصل المكالمة وردد:

-حتى هاتف يعطيك العافيه...

قرّر أن يقصد المكان بعدما كزّ على أسنانه وسب شركات الاتصال. رفع الإعلان عن بساط الأرض، وتفرّس في قراءته من الأول بعدما مسح طبقات من الغبار وقال:

-واللّه لو طبقات أوزون مو هيك...

وضحك.

طوى الإعلان طويتين غير متساويتين، ودحشه في جيب سرواله كالعلكة المستخدمة.

-وربّ ضارةٍ نافعة

غمغم. شق سبيله في الحارة الضيقة. السيارات مركونة على رصيف بالكاد يستطيع أحد عاقل أن يطلق عليه "رصيف!"

-"مركز جامعة دمشق لنقل الدم عند مدخل سكن الممرضات جانب مشفى الأطفال".

ردد العنوان على لسانه بينما منى نفسه بأفكار حول مظهره والمكافأة المالية التي سيتقاضاها. بمجرد التفكير تحررت بوادر السعادة لديه، كان مسافة الطريق، إذا استاء من حاله أو حال الدنيا تذكر المكافأة. بدأ يومه له يتألق كنجم سماء في الليل. إلى أن صار في أسفل العمارة الوردية. نظر في صفحتها فتفرس الإعلان إلى منظوره ملصوق على الواجهة بصورة كبيرة. ولج البناء الملون من بوابة مدورة تزحف على الأرض، فتصدر صوتًا يشبه الأزيز. أول ما رآه... طابورًا طويل عريض من المرضى إلى دائرة الاستقبال. رتلت شفتيه:

-لا واللّه...

ساوره شكٌ، تداعى الهدوء حتى لا يتسبب لنفسه بأزمة قلب. وهمس "لا داعي للقلق، يمكن رهبة المركز!". مرّ به شخصٌ كان يرتدي لباس ممرض، علاوةً على ذلك حمل في يده دستة أوراق تبينها مستلزمات عمليات التبرع. ارتطم بكتفه، فسأله:

-مكان التبرع؟

فأشار الموظف بسبابته إلى الطابور وما نبس بحرف، ثم مضى هائمًا في صفحات الأوراق إلى حتفه. أومأ برأسه كأنما تلقى تعليمات لا شك في صحتها، وسار إلى الزوبعة الفوضوية من الناس. اتخذ لنفسه دورًا خلف امرأة مسنة لون شعرها أحمر مصبوغ، في معصمها ساعة حديدية استك مربعة، عالقة في منتصف ذراعها من شدة بدانتها. تساءل في نفسه "ماذا تفعل هذه السيدة هنا...؟!!"

صبّ نظره في ساعته " الواحدة ظهرًا!! " وغمغم "حسبي الله ونعم الوكيل!". تبلل عرقًا وما فتئ يتأفف. استدارت إليه السيدة وثقبت نظرها من خلف نظارة سميكة بإطار ستاتي كلاسيكي، وقالت محتجة:

-رجال هذا الزمان...

فقال ممتعضًا:

-حجة لا تدخلي...خليكِ بحالك إذا بتريدي...

حركت السيدة البدينة رأسها في تأفف. وقالت مشيرة بيدها إليه باشمئزاز:

-وين وصلنا...

أشاح نظره عنها، وافتعل التحديق في إحدى الزوايا. انقضت سعةٌ غليظةٌ من الوقت في الانتظار فكر فيها مرارًا أن يعود أدراجه، إلا أنه التمس في كلِّ مرة الصبر، مستذكرًا القيمة المالية التي سيتقاضاها. ذلك هون عليه مشقة الانتظار بعض الشيء.

أسند جبينه إلى زجاج بلور شفاف. قال:

-متبرع دم " أ " إيجابي.

كان الموظف مشغول في شاشة الحاسوب. ما رفع رأسه مثقال ذرة...مما أثار غضبه. عاد يكرر بعدما ابتلع ريقه وشدّ على يده:

-متبرع دم " أ " إيجابي...!!!

...-

-عذرًا، قرأت في إعلان...

-أول عطفة إلى اليمين، الباب في آخر الكوريدور.

قاطعه الموظف.

فهمس بنبرة غاضبة ساخرة:

-دخيل الله محترم وموجب...!!

-عفوًا؟!!

-...لا شيء...شكرًا على العموم.

" صرنا نتعامل بالإشارة أم ماذا...عصر السرعة والتطور!!" غمغم. تدحرج في باحة الاستقبال إلى المدخل الذي أشاره الموظف له. عبر الرواق حتى صار في نهايته، وانسل من بابٍ نصف مفتوح حُفر عليه بالخط العريض "قسم التبرع". كان هناك رجلٌ خلف نافذة، كان الرجل يرتدى مئزرًا أبيضًا متسخًا، في مرفقه بقعةٌ صفراء مقززة. لم يحفل بما رأى، إلا أنه تغافل ذلك، خاصةً عندما لقي من الأخير معاملة راقية بالمقارنة مع المعاملة " الزبالة " في الخارج. اقتيد إلى غرفةٍ أخرى، سارا في دهليز المركز التي زينته خيوط العناكب. ما خلت زاوية منها. ردد على مضض:

-ما شاء الله نظافة...تبارك الله.

لفه الاشمئزاز من قذارة هذا المكان -الذي لا ينم بلقب "مركز أو مشفى" بأي صلة- ناهيك عن "المعاملة"

"وما نهايتها يا ترى!" تساءل. دخلا حجرةٍ صغيرة مربعة، تمركزت أسرّة بلاستيكية في وسطها أربع مجالس تقابل بعضها البعض. ولج فيها خيطٌ رفيعٌ من أشعة الشمس، عدا ذلك عتمةٌ كالحة لا يميّز فيها المرء الطالح الفاسد من البار الصالح. أشار له أبو المئزر بالجلوس على أحدها، جلس إلى أقربها من الضوء وفكر "أقل شيء يشوف وين يوخزني...". جلس بحذرٍ، وجأر عدستيه في الطبيب الذي ما كان ينتهي من إعداد المستلزمات، مضت سعةٌ كبيرة من الزمن، قال بصوتٍ غليظ:

-ماذا يحتاج إجراء صغير كهذا؟

-كبسة زر...

-يلعن أخت كبسة زر...

-عفوًا يا فندم...!!

-ولا شي...يعطيك العافيه...

أخيرًا التفت إليه بعدما وضع الأدوات على المنضدة المستديرة، في المنتصف، وطلب منه أن يكشف عن بطنه. حملق الرجل متسائلًا وقال:

-بطني؟!...ألا يُجرى التبرع من الساعد...!!

-من المؤكد يا فندم...

قال الطبيب.

شمر له ذراع القميص. كان الطبيب آنذاك يقلب نظره بين الذراع والمتبرع. خالجه إحساس غريب. تناول الطبيب المعقم...

-ههه...المعقم فارغ يا فندم...

فقال ساخرًا:

-صراحة لم أتوقع ذلك...

-عفوًا يا فندم...؟!

فصمت وأشاح بوجه.

رُفع الغطاء عن الدبوس، وابتدر الطبيب يحاول مرة ومرتين وثلاث. عبثًا بلا جدوى.

-عفوًا يا فندم...بتحصل...

...-

نظر أخيرًا...زعق في وجهه:

-إلى متى...!!!

-اعذرني يا فندم، فأنا لست الطبيب...

-لست الطبيب!، وماذا تفعل يا أبله؟

فاسترسل المعتوه بصوتٍ مبحوح متهدج:

-هي المحاولة الأولى ليَّ...

ثم استطاع بمحض الصدفة أن يصيب الوريد. بدأ الدم يجري إلى صرة بلاستيكية مفرغة. تنهد المتبرع. مسح الآخر عرق جبينه بظاهر كفه، وابتسم للأول على مضض، وقال:

-نجحنا...

-الله لا يسامح يلي عطاك شهادة...

-عفوًا يا فندم...؟

-أنتو بمصر بتفهموا عربي...؟!

-طبعًا يا فندم...

-مو مبين لأن...

-عفوًا يا فندم؟

-الله يعطيك العافيه...

-تسلم يا فندم. يا فندم أنا حمشي دلوقتي...وحبقى أرجع بعد نص ساعة...

- نص ساعة!!!

-ايمت بتحب يا فندم...؟

-قلتلي ايمت بحب...!!

-حضرتك ما تخاف. أنا حجي لما بتريدني...

حينها دلفت صبية من الباب، كانت ترتدي مئزرًا أبيضًا وحذاء رياضي. وقفت عند عتبته وقالت:

-زمرة الدم المطلوبة للتبرع " ب " إيجابي. محمود المحاسب أخطأ بكتابة الإعلان.

-شووووو؟!!!

-حاضر يا سُكر...دلوقتي بحاول برده من الدراع الثانية...

-تحاول شووووو...وزمرة دم " ب " إيجابي شووو...وطلع محمود المحاسب مخربط شووو...أنتو عم تمزحوا أكيد...

-نحن ما منهزر يا فندم...

-وأنت هلأ لفهمت أخيرًا شو عم بحكي...

-عفوًا يا فندم...

-أبوك على أبو يلي نفضك...على أبو المركز...

انتشل الإبرة من ذراعه. وانقض كالمجنون على الفريسة. لطمه بشده إلى أن تورم وجهه...كان ذاك آخر ما استذكره..

فتح وسيم عينيه. كان جالسًا على كرسي مريح، خاص بتبرع الدم. نظر في الممرضة الشقراء إلى اليمين. كانت الآنسة الجميلة ترتدي زيًا موحدًا أزرق خاص بالتمريض، كان شعرها الأشقر الباهر مربوط إلى حزمة كذيل الفرس. لم يستطع أن يمنع نفسه من الابتسام. كانت أساريره تضحك من الداخل. سألته الممرضة الشقراء باللغة الألمانية:

-استاذي المحترم وسيم...أنا صوفي...الممرضة الخاصة بسحب الدم. أريد أن أسألك أولًا...هل أنت بحالة نفسية مناسبة لإجراء التبرع؟

-هل أنا بحالة نفسية مناسبة؟

-نعم يا استاذ وسيم. فإذا لم تكن مستعدًا...

فقاطعها بصوت منخفض:

-دخيل قلبك. أنا بالجنة ولا شو...؟

-ماذا...

فأملى عليها:

-نعم...أنا بحالة نفسية جيدة...

-العملية سوف تتم من الذراع. الزمن المحتاج ثلث ساعة. الساعد اليمين. الحالة النفسية للمريض جيدة. الوقت الحادية عشر. وقت الانتهاء الحادية عشر وثلث. الأدوات كذا وكذا وكذا... زمرة المتبرع " أ " إيجابي. الزمرة المطلوبة " أ " إيجابي. مواليد الاستاذ وسيم كذا. من حي كذا في شارع كذا في ألمانيا. قاطعها وسيم:

-شو عم تطلقوا صاروخ؟!

-عفوًا حضرة السيد وسيم؟

فقال وسيم مبتسمًا بعطف:

-تابعِ...أرجوكِ أن تتابعي...

ما صدق وسيم ما رآه. رددت بقية المعلومات عليه. شعر بإنسانية فائضة. لأول مرة في الحياة يشعر نفسه إنسان على هذه الأرض. تربع على مجلسه كأنما ملك من الملوك. قالت الآنسة صوفي:

-إذًا استاذ وسيم. سوف نبدأ بعملية التبرع...

-تقصدين إطلاق الصاروخ...

-عفوًا حضرة السيد وسيم؟!

فضحك وسيم ملئ قلبه. وابتسمت صوفي أيضًا دون أن تعي سبب الضحك. ثم بدأت...

...

تمت بعونِ اللهِ